شَجَرَةُ

الأَنبِيَاءِ

- ١٠ -

شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ

القسطاس المستقيم

منصور الرفاعى عبيد　　د/ إسماعيل عبد الفتاح　　رزق السيد هيبة

رسم صفوت قاسم

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٥ منصور الرفاعى عبيد.

م ن ش ع شعيب عليه السلام: القسطاس المستقيم/ منصور الرفاعى عبيد، إسماعيل عبد الفتاح، رزق السيد هيبة؛ رسم صفوت قاسم.- القاهرة: دار الفكر العربى ١٩٩٨.

٢٤ ص : إيض؛ ٢٤ سم. - ([سلسلة] شجرة الأنبياء؛ ١٠)

تدمك : ×ـ ١١٢٦ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ قصص الأنبياء. أ ـ إسماعيل عبد الفتاح، مؤلف مشارك. ب- رزق السيد هيبة، مؤلف مشارك. جـ- صفوت قاسم، رسام. د- العنوان. هـ- السلسلة.

صف كمبيوتر عادل أحمد العزب

رقم الإيداع	٨١٨٩ / ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الأَمانةَ مِنْ أَهمِّ الصِّفَاتِ الَّتى يَجبُ أَنْ يَتَحلَّى بها البَشرُ، وتكُونُ هَذه الأَمانةُ أَعظمَ أَهمـيَّةً إذا كَانَتِ الأُممُ فِى سَـبِيلِهَا إِلَى الـتَّنظِيمِ والنُّموِّ وَالاسْتِقرَارِ.

وَمَنْ أَهمِّ مُقْـتضَـيَاتِ الأَمَانة إعـطَاءُ كُلِّ ذى حَقٍّ حقَّهُ بالـقسطَاسِ المسْـتقِـيمِ، والعَدلِ الشَّـدِيدِ، بلاَ جَوْرٍ عَلَى حَقِّ أَحـدٍ، ولاَ نقصَـانٍ مِمَّا يَستحِقُّهُ الآخَرونَ.

وأَهمُّ مظَاهرِ الأَمـانَة أَنْ تكُونَ فِى الكَيْلِ والميزَانِ، فَـيجبُ أَنْ نُوفِّىَ الآخَرِينَ فِى المِيـزَانِ لاَ نَنْقصُ مِنْهُ شَيْـئًا، وَأَنْ نأْخذَ مِنَ النَّاسِ مَـا عَليهِمْ وَافيًا ولاَ نزيدُ عليه شَيْئًا، فَلاَ نبخَسُ النَّاسَ أَشياءَهمْ فِى بَيْعٍ وَلاَ شراءٍ.

وَفِى هَذه القصَّة نَلتـقى مَعَ نُموذَجٍ إيمَانِىٍّ، وَمثلٍ حَىٍّ للمـعاَملاتِ الصَّحيحَةِ، وَالأَمانة الكَامِلة، قِصَّةُ نَبِىٍّ مِنْ أَنبياء اللهِ الصَّالحِينَ أَرسَلَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لِيدْعُوَ قَومَهُ إِلَى التَّـوحِيد أَولاً، وَأَنْ يَعبدُوا اللهَ وَحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، وَكانَ هَؤلاءِ القَـوْمُ يبخَسونَ الكَيْـلَ والميزَانَ، فَدعاهُمْ نَبِـيُّهمْ إِلَى أَنْ يَتركُـوا هذه الخَصْلَةَ الذَّميـمةَ، فَلَمْ يَسـتجِيبُوا لدعْوة اللهِ وَرسُـوله فَحقَّ عَليهِمْ - كَمَا حَقَّ عَلَى الذين مِنْ قَبلِهِم - العذابُ الشَّديدُ.

أَمَّا النَّبىُّ فهـوَ شُعيبٌ عَليهِ السَّلامُ، وأَمَّا قومُـهُ فهُمْ أَهلُ مَدْينَ، ثُمَّ أَصحَابُ الأَيكَةِ مِنْ بعدِهِمْ.

شُعَيْبٌ عليهِ السَّلامُ

هُوَ شُعَيْبُ بْنُ صَيْفُونَ بنِ عَيفَا بْنِ نَابت بنِ مَدينَ بنِ إِبراهيمَ عليه السَّلامُ، فَهوَ بذلكَ حَفيدٌ لأَبِى الأَنبياءِ خَليلِ الرَّحمنِ إبراهيمَ، عليه صَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ.

ولدَ شُعيبٌ عليه السَّلامُ فِى قَومِ مَدْينَ، الَّذينَ نُسبوُا إِلَى مَدينَ بْنِ إِبرَاهِيمَ، وعَاشَ بَيْنَهُمْ.

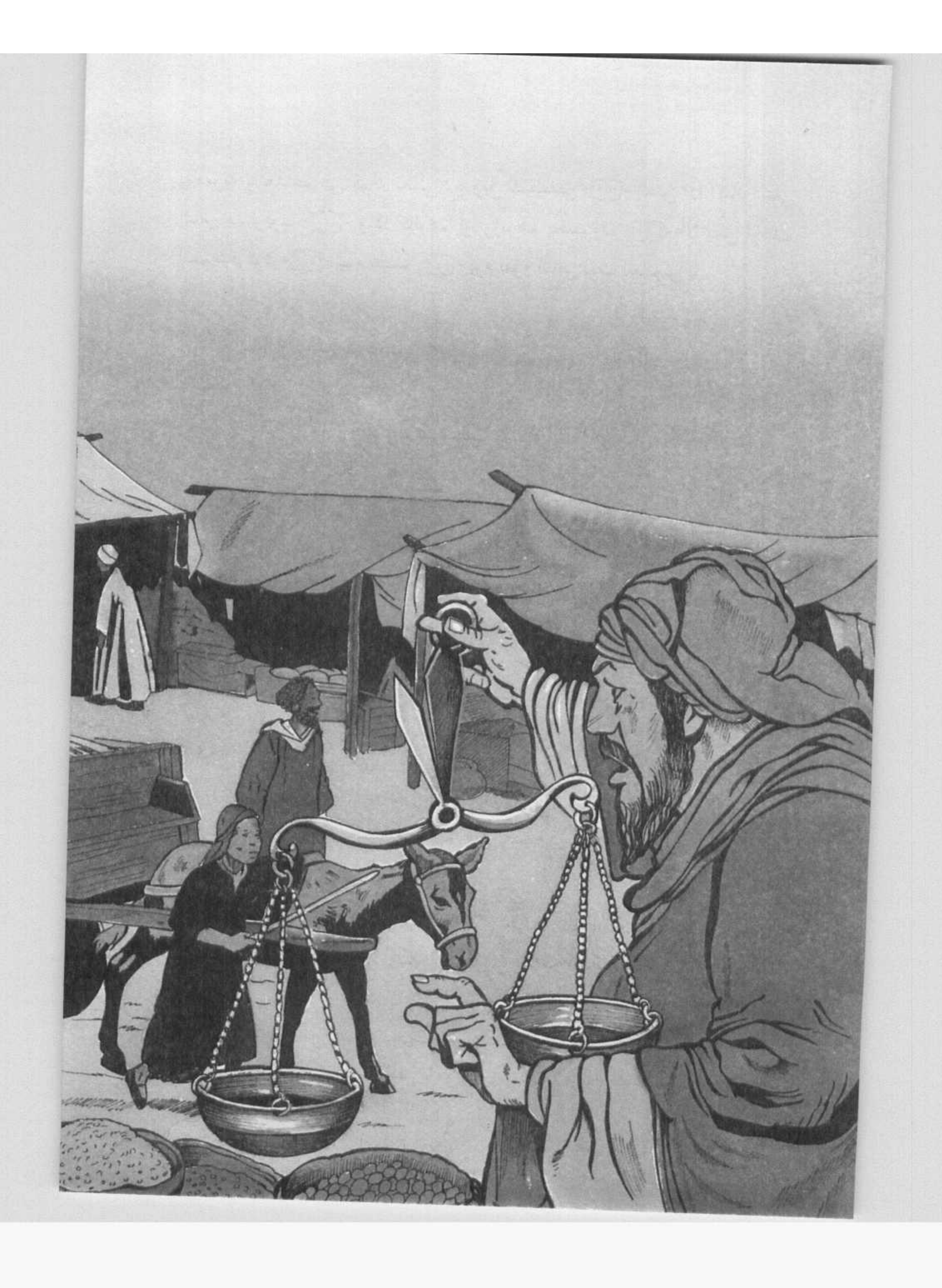
قومُ مدْينَ

كَانَ أَهلُ مَدْينَ، يَعيشُونَ فِى تلكَ المنطَقَةِ الَّتى سُمِّيتْ باسْم جَدِّهمْ، مَدينَ، أو مدْيانَ، وهى منطقةٌ تَقَعُ فِى شَمال غَرْبِ الجزيرَةِ العربِيَّةِ، عَلَى حُدُودِ الشَّامِ، وعَلى مَقربة مِنْ سَاحِلِ البَحْرِ الأَحمرِ.

وكَانَ موقعُ مدْينَ فى هَذه المنْطقَة قَد جَعلَ سُكَّانَهَا أَهلَ تجارة، والتَّجارَةُ مَا هى إلاَّ بَيْعٌ وَشراءٌ، وَتبادُلٌ لِلبضَائعِ بمَا يُفيدُ البَشَرَ ويُصْلِحُ أَحوالَ الحيَاة.

ولَكنَّ أَهلَ مدْينَ كَانُوا يُشركُونَ باللهِ، وكَانَ من صفَاتهِمُ الرَّديئة وَخِصَالِهِمُ الشِّرِّيرَةِ، أَنهمْ يَنقصُونَ فِى المكْيالِ والميزَانِ إِذَا بَاعُوا، ويشترُونَ منَ النَّاسِ بِأبْخسِ الأَثمانِ.

وكَانَ منْ حِيلهِمْ فِى ذَلكَ أَنهُمْ يَضَعُونَ الأَثقالَ مَعَ البَضَائعِ الَّتى يَبيعُونَهَا فَيثقُلُ الميزَانُ معَ قلَّة البضَاعَة، ويضَعونَ هَذه الأَثقالَ مَعَ الموازينِ فى حَالة الشِّرَاءِ، فَيأخُذُونَ منَ البَائعِ لَهم أَكثرَ مِمَّا يستحقُّونَ، وبهَذَا يأكلُونَ أَموالَ النَّاس بالبَاطلِ، فَيكُونُ بَيْعُهم بثمَنٍ مُرتَفعٍ، وَشراؤهُم بثمنٍ بَخْسٍ، وهَذا هُوَ التَّطفيفُ الَّذى حَذَّرنا اللهُ مِنْ عَاقَبةِ فعْلهِ وأَنذرَ منْ



يَفعلونَهُ بالعذَاب فِى قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

[المطففين: ١ - ٦].

وَبهَذَا التَّطفِيف تَحقَّقَ لأهْلِ مَدينَ أربَاحٌ كَثِيرَةٌ فامتلكُوا الأَموَالَ الطَّائلَة، وصَارُوا مِنْ أكَابِر الأغَنياء.

دَعوة شُعَيْب عليه السَّلام

كَانَ شُعيبٌ - عَلَيْه السَّلامُ - يعَيشُ بينَ أَهلِ مَـدينَ، فبعَثَهُ اللهُ نَبِيًّا ورَسُولاً إليهِمْ، لكـى يَدعـوَهُمْ إلَى عِبَادة الله عَزَّ وجَلَّ، وينهَـاهُم عمَّا يَفـعَلونَهُ مِنَ المنكَرات، ويُـحذّرَهم مِنْ بَـأسِ الله الشَّديـد. فكَانَ يَعِظُهُمْ وينصَحُهُمْ، ويدْعوهُمْ للهدَايَة وَالإيمَانِ، قَالَ لَهُمْ:

يَا قَومُ، يَا أهْلَ مَدينَ، اعبُـدُوا اللهَ مَا لَكمْ مِنْ إله غَيرُهُ، هُوَ الَّذى خَلَقكُمْ وإليه تُرجعُـونَ، إنَّ عليْكُمْ أنْ تُراعوا حَقَّ الله فِىَ الكَيْلِ والميزَانَ، حتَّى لاَ يعذبكُمُ اللهُ بسبَبِ التَّطفيف، وأكلِ مَالِ النَّاسِ بالبَاطلِ.

وكَانتْ حُـجَّةُ شعَيْب بَالغَـةً فِى الإقْناع، وَفى إبلاَغ قَومه بمضْـمُون رسالَته، ولذلكَ سُمِّىَ شُعَيْبٌ بخَطيب الأنبياء، لحَسْنِ مراجَعته قَومَهُ فيمَا يريدُ أنْ يخبـرَهُمْ به، وبراعتـه فى إقَامـةَ الحـجَّة عَلَيْـهمْ، ودَحضِ حُجَجهمْ.. وجَاءهُمْ بالبيِّنة مِنْ ربِّه عَلَى صِدْقِ مَا يَدْعُوهُمْ إليَه.

قَالَ اللهُ تعَالَى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

[هود: ٨٤].

فَهل اقْتنعَ أَهلُ مدْينَ بحجُج شُـعيْب القَوية..؟ كَلاَّ.. لَقد ازْدادُوا كُفْرًا وشراً، وخذَلَه قَومُهُ، ولَم يؤمنْ بِهِ إلاَّ قَليلٌ. مِنَ المستضْعفينَ.

لَقدْ أتى شعُيبٌ قومَهُ بشريـعَة منَ الله، فَرفَضُوا أنْ يُصدِّقُوهَا. ولَمْ تكُنْ هَذه الشَّريعَـةُ إلاَّ أنهُ علَى كُلِّ واحد منهُمْ أنْ يَأخُذَ مَـالهُ ويُعطى مَا علَيه بالحقِّ والعَدْل، وسمَاحَة القَلْب، والقسْطاس المستَقيم.

لَكنَّهمْ يرفُضُـونَ، ويَزيدُونَ علَى رَفضهِمْ أنهُمْ كَـانُوا يَجلسونَ علَى الطُّرق يَرصُدُونَ النَّاس الَّذينَ يَأتُونَ ليسْمعُوا منْ شُعيْبٍ دَعوتَهُ، ليصُدُّوهُمْ عَن الإيمَان والدِّين.

كَانُوا يَتوعَّدُونَ مَنْ آمنَ بدعْوة شُعَيْب علَـيْه السَّلامُ بأنَّهمْ سَينتَقمُونَ منهُمْ شَرَّ انْتقَـام. وَطالَ غيهُمْ وإصْرارُهُمْ عَلَى رَفض مَا جَـاءَ به شُعَيْبٌ، وَظَلَّ يُجادلهُمْ ويُحاورُهُمْ، فَقالُوا لَهُ:

يَا شُعيْبُ، لاَ نَفهَمُ ممَّا تقُولُ شَيْئًا.

ويَظنُّونَ أنَّ الاعـتذَارَ بعَـدَم فَهـمهمْ سَـيكُونُ حُجَّـةً لَهمْ، لَكنَّه فى الحقيقَة كَانَ حُجَّةً عَليهمْ، لأنهُمْ وَصمُوا شُعيبًا بالضَّعف فيهمْ، فكيْفَ لاَ يفهَـمُونَ قَـولَ الضَّعـيف، ثُمَّ هُمْ بعدَ ذلكَ يُكذِّبـونَهُ وَلاَ يتبَـعُونَهُ، وَلاَ يَفهمُونَ ما يقُولُ.

وَاستمرَّ أهـلُ مدْينَ فى غيِّهمْ وضَلاَلهمْ، حَتَّى أنهُمْ كَـانُوا يمزِّقُونَ الأَموالَ ويُقطِّعونَهَـا لكثرَتهَا بَينَ أيديهمْ، وَعندَمَا نَهاهُمْ شُـعيْبٌ عَنْ فعلِ ذَلكَ، لأنَّهُ نكرَانٌ لنعْـمَـة الله، وجُحُـودٌ لرزْقـه، وسفَـهٌ فى اسْـتخْـدَام الأَموال. وَأوضحَ أنَّ المالَ مَـالُ الله، ويَجبُ عَلَى البشَر أنْ ينفـقُوهُ فيـمَا يُفيدُ، رَدَّ عَليه أهلُ مدْينَ بسفَاهة فى الرَّأى وَسخافَة فى الكَلام. قَالوُا:

يَا شُعَـيْبُ، إنهُ لاَ يُمكنُكَ إجبَـارُنَا عَلَى ترك دين آبائنَا، وَليسَ لَكَ شَأنٌ فى أموَالنَا، نَفعَلُ بهَا مَا نشَاءُ دُونَ أنْ يكُونَ أحدٌ وَصيًّا علينَا.

كَانَ حبُّهُم للمَال يكَادُ يكُون نوعًا منَ العبَادَة ظنًّا منهُمْ أنهُ يقُومُ مقَامَ الإله، فهُوَ الَّذى ينفعُـهُمْ، ويُلبى حَاجَاتِهِمْ، وهذَا زعْمٌ باطلٌ؛ لأنَّ المالَ يَفنى ويزُولُ، ولكنَّ النَّـافعَ هُوَ الحىُّ الَّذى لاَ يَمُـوتُ، كَمَا أنهُمْ كَـانُوا يَعبدُونَ الأصْنامَ، ويتَّخذُونَهَا آلهةً منْ دُون الله.

انتِقامُ اللهِ مِنْ أهلِ مَدْيَنَ

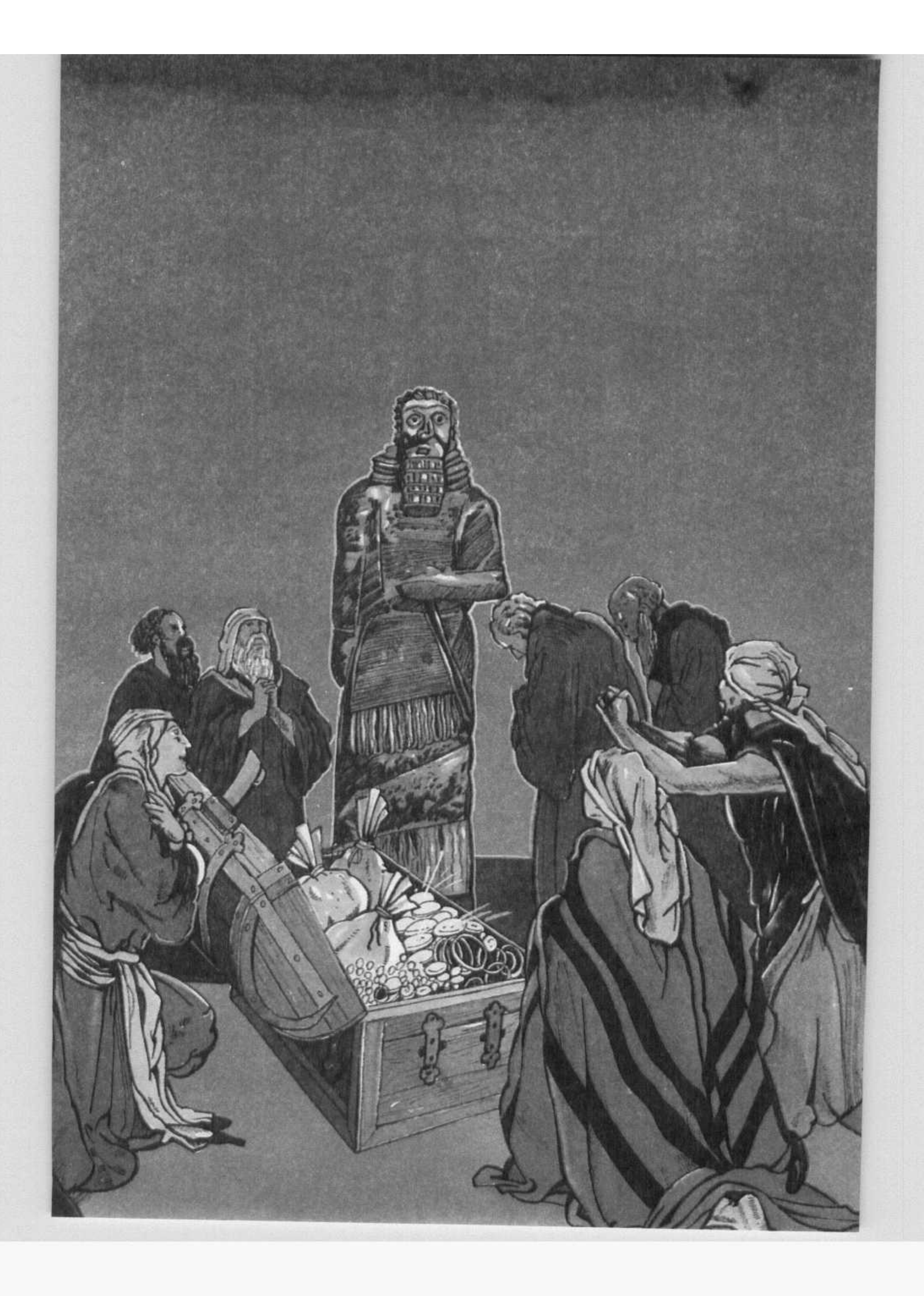
كَانَ شُعيبٌ عَليـه السَّلامُ يُعالجُ مرضًا اجْتمَـاعيًّا خطيرًا، هُو الغشُّ والتدْليسُ وأكلُ أموال النَّاس بالبَاطِلِ، وكذَلكَ الخيَانةُ ولُؤمُ الطِّباعِ، ولَكنَّ قومَهُ كَذَّبوهُ، وهدَّدُوهُ، وقَالُوا لَهُ:

يَا شُـعَـيْبُ، لَوْلاَ أنكَ منَّا، ولَوْلاَ أنَّ أسـرَتَكَ مِـنْ بينِنا لحَـارَبنَاكَ ورجَمنَاكَ، وَلَكِنْ إذَا وَصَلَ الأمْرُ، إلَى سَبِّ آلِهتِنا وآلهَةِ آبائنَا، فَاعلمْ أنَّهُ لَيسَ عندَنَا عَزيزٌ، نَخْشَى بَطشَهُ، أَوْ نخَافُ مُحَـاربتَهُ، فدَعْ مَا تدْعُو إليْه، يكنْ أفضلَ لَكَ، وراحةً لَنَا.

وَظَلَّ شُعَـيبُ يَجهـرُ بدَعوته فِى إصْـرارٍ وقُوة، فَاجـتمَعَ إلَيْـهِ قَومٌ منْهُمْ، وأبلغُوهُ هُو ومَنْ آمنَ مَعهُ تَهديدًا صَريحًا، قَالُوا:

يَا شُعْيبُ، احْذرْ، فسَـوفَ نُخرجُكَ أنتَ والمؤْمنينَ معَكَ منْ مدَينَ كُلِّها، فـإمَّا أن تعُودُوا إلى دِينِنا وَدِينِ آبائنَا وتتَّـبعُوا طَرِيقَنا فِى العَـبادَاتِ وَالمعامَلاتِ، وإمَّا أنْ تخرجُوا منْ قَريتِنَا.

ولَمْ يخَفْ شُعَيْبٌ منْ ذلكَ التَّهديدِ، ولَمْ يخْشَ عَاقبَتهُ فقَالَ لَهمْ فِى تَحدٍّ:



لاَ يُمكنُ أنَ يحْدُثَ هَذَا، فَهلْ بعْدَ أن هَدانَا اللهُ للإيمَـانِ، ومَعرفَته حَقَّ المعرفَـةِ، وأرَشدنَا إلَى الصِّراطِ المسْتقيمِ، هَلْ بعـدَ هَذَا كُلِّه نكْفرُ به ونَعودُ إلَـى عبادَةِ الأَوثَانِ والأَمْـوالِ، إنَّ هَذَا مَا لَنْ يكُونَ أبدًا، حَـتَّى لو أكرهتمُـونَا عليه، لأنَّنا نكُونُ قَدِ افْتـرَيْنَا عَلَى اللهِ الكذِبَ، نَعوذُ باللهِ مِنْ ذَلكَ.

وَعادَ شُعيبٌ يخَطُبُ فِى قَومه.. يقُولُ:

إنَّ اللهَ لاَ يُضِـيعُ أجْـرَ المؤْمنينَ الَّذينَ عَليـه يتَـوكَّلونَ، ولَذلكَ لَنْ يَخـذُلَنَا اللهُ الَّذى هَدانَا وأرشَـدنَا إلَى الحقِّ، ولَنْ نَعـودَ فِى مِلَّتكُمْ، ولَن نَعودَ إلَى عبادَةِ أصْنامِكُمْ وَأوثَانِكمْ أبدًا.

وَخافَ أَهلُ مَـدْينَ مِنَ انتشَارِ دَعوةِ شُـعْيبٍ عَليه السَّلامُ، فَـقدْ بَدأَ يُؤمنُ بهَـا الكَثيرُ مِنَ النَّـاسِ، وقَالتْ قِيـادُتُهمْ للجَمَـاهيرِ الخَـائفَةِ، وَهُم يُريدُونَ تَأليبَهمْ عَلَى شُعيبٍ ورِسَالَته:

إنَّكمْ ستَخْسَرُونَ كَثيرًا إذَا اتَّبعْتُمْ شُعْيبًا.

وَهمْ يَقْصدُونَ خسَارةَ المالِ الَّذى يَجمَعُونَهُ بِالبَاطِلِ. وقَالَ بعْضُهُمْ:

إنَّ شُعَـيْبًا يسْـتنكرُ طَريقَتَكُمُ المثْلَى فِى البَـيْعِ والشِّرَاءِ. وهَى الغِشُّ والتَّطفيفُ فِى الكَيْلِ والميزَانِ، وبذَلكَ ستنقُصُ ثروَاتُكُمْ، وتقلُّ أموالُكمْ، وَإنَّ أمَركُمْ لَعـجيبٌ، إذْ تسمَـعُونَ كَلاَمَ شُـعيبٍ الَّذِى ينهَاكُمْ عَن عِـبادَةِ مَاكَانَ يعبُدُ آباؤكُمْ.

وزَادُوا عَلَى قَـولهِم هَذَا أنْ تَهكَّمُوا عَلَى شُـعَيْبٍ، وعَلَى صَـلاَته، ولَكنَّه كَانَ واسِـعَ الصَّدرِ، عَظيمَ الحِلْمِ، فأعَـادَ المحَاولَةَ مَـرَّاتٍ ومرَّاتٍ،

يَدْعوهُمْ للإِيمَـانِ وَحسنِ المعاملَةِ، ويحـذِّرهُمْ مِنَ عَواقِب مَعصـيَةِ اللهِ.

وَكثيرًا ما أقَامَ عَليهِمُ الحجَّةَ وهمْ عَنهُ مُعرِضُونَ، فَحذَّرهُمْ مِنْ غَضَبِ اللهِ وبطْشهِ، وَعَظِيمِ عَـذابه لمنْ خَالفَ دعْوتَهُ، وَأَلقَى إِليهِمْ بإِنـذَارٍ أَخيرٍ، لَنْ تَصحَّ توبتُهُمْ إِذَا لَمْ يُصدِّقُوهُ، هَذَا إِذَا أَرادُوا التَّوبةَ، وكَانَ الإِنذارُ بأنَّ اللهَ سَيُحِلُّ عَليهِمْ عقَابهُ، وسَيُهْلكُهُمْ أَجمَعِينَ.

وَبَعْـدَ أنْ يَئسَ شُـعَـيْبٌ مِنْهُمْ، طَلبَ مِنَ اللهِ أَنْ يُرِيَـهُمْ آيَاتِه، ويُعاقِبَهم، وينُفذَ فِيهِم وَعيدَهُ لأَنَّهُمْ قَومٌ بَاغُونَ.

فَزلزَلَ اللهُ الأرضَ مِنْ تَحتِـهِمْ، فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجفَـةُ، فَانهَارتِ المنَازلُ فَـوقَ أَصْحَـابِهَـا، وَابتلعَتِ الأَرضُ أمـوَالَهمُ، وأَهْليـهِمْ، وَكُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يَملكُونَ، وكَانتِ الرَّجفَةُ مدَمِّرةً لِكلِّ شَيْءٍ دَاخِلَ مدْينَ مُهلكَةً لِلكافِرينَ.

وَلكنَّ اللهَ أَنزلَ رَحْـمتَهُ بشُـعَيْبٍ وَالذينَ آمَنُوا مَـعَهُ، وخـرَجُوا مِن أَرضِ مَدينَ سَالمينَ، ولـمْ يحزَنْ شُعيبٌ، وَالذينَ آمَنوا مَـعَهُ لِهلاَكِ هَؤلاءِ القَومِ، لأنهُمْ كَـانُوا قَوْمًا خَـاسِرِينَ، يستـحقُّونَ مَـا نزلَ بِهِمْ مِنَ العذَابِ الأَليمِ.

وعَنْ هذِهِ القصَّةِ قَالَ القُرآنُ الكَرِيمُ:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا





بكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٩٢].

وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ

مِن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٨٤ - ٩٥].

قصة أصحاب الأيكة

بَعدَ نَجاة شُعيبٍ عَليه السَّلامُ، والَّذينَ آمنُوا مَعَهُ منَ الرَّجفَة الَّتي أَخذَتْ أَهلَ مَدينَ ودمَّرتْهم جَميعًا، سَارُوا إِلَى أيْكة كَانَتْ مُجاورةً لمدينَ.

والأيكَةُ، أَو الغَيضَةُ، هيَ مَكَانٌ ينْبتُ فيه ناعمُ الشَّجرِ، أَيْ أَنَّ أصْحابَ الأَيكة كَانُوا يَعيشُونَ بَينَ حَدائقَ كَثيرَة، وبسَاتينَ كَثيفَةِ الأَشْجار تَلتفُّ أَغصَانُهَا وتَتَشَابَكُ منْ أَعلَى فتغَطِّي المنطقةَ كُلَّها بالظِّلال الوَارِفَة كَمَا تعطِي مَنظرًا بديعًا يَزيدُ منْ رَوعة الأَيكَة وجمَالهَا.

وَكانَ أَصحَابُ الأَيكة مِنَ الكَافِرينَ، كَمَـا كَانُوا يَتَّصفُونَ بطبَاعِ أَهْلِ مَدينَ، إذْ كَانُوا مـجاورِين لَهمْ، ويَعيشُونَ فِى بَاديتِهِمْ، فكَانُوا يَـبْخسُون النَاسَ فِى المكاييلِ والموَازينِ، مَعَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَوْسعَ لَهمْ فِى المعِيشَةِ، وبسَطَ لهمْ فِى الأَرزَاقِ.

فَلمَّا لمس منهُمْ شُعيبٌ هَذه الأَخلاقَ والخـصَالَ المذْمومَةَ دَعاهُمْ إِلَى الإيمَانِ باللهِ الرَّازقِ الخَالقِ الوَهَّابِ، كَمَا دَعَاهُمْ إِلَى إِيفَاءِ النَّاسِ حُقُوقَهُمْ فِى البيعِ والشِّرَاءِ.

فقَالَ لَهُ أَصْحابُ الأَيكَة:

مَا أنتَ إلاَّ بشرٌ مثلُنَـا، فكيفَ يُرسِلُكَ اللهُ لهِدَايتنَا؟ إنَّا نظُنُّ أَنهُ قَدْ مسَّكَ السِّحرُ، ونَعتَقدُ أَنكَ كَاذبٌ، فَلستَ رَسُولاً ولاَ نَبيًّا.

لَقد تصَوَّرُوا أَنَّ رُسلَ اللهِ لاَ بدَّ أنْ يكُونُوا مَـلائكَةً منَ السَّماءِ، وَلاَ يكُونُونَ من البَشـرِ، وهَذا فَهمٌ خَاطِئٌ وتصَـوُّرٌ سَاذَجٌ؛ لأنَّ اللهَ سبْـحَانَهُ وَتعَالَى يرسِلُ كُلَّ رَسُولٍ من بيْنِ قَومِهِ، يَعرِفُ عَـادَاتِهِمُ الحسنَةَ فَيشَجِّعُهُمْ وَيحُثُّهمْ عَلَى دَوامِ اتِّبَاعِهَا، ويَعرِفُ خِصَـالَهُمُ السَّيئةَ فينهَاهُمْ عَنْهَا، وَهُوَ فِى الوَقْتِ نَفْسِه يتكَلَّمُ بلسانِهمْ، ويَعيشُ حيَاتَهُمْ، ويكُونُ مَثلاً بَشريًّا أَمامَ أَعيُـنِهمْ يَتعلَّمُونَ مِنْهُ أَنَّ النَّاسَ يُمكِنُهمُ أَنْ يـنفّذُوا أَوامرَ اللهِ كَمَـا يُنفذُّهَا الرَّسُولُ.



عِقابُ اللهِ الأليمُ

لَقدْ وَصلَ أَصْحَابُ الأَيكةِ إِلَى دَرجَةٍ كَبيرةٍ مِنَ الحمْقِ والسَّفاهَةِ، ولَمْ يَعتبروا بهلاَكِ أهلِ مَدْينَ، الذِينَ كَانتْ مَدِينَتُهُم بمَثابةِ العَاصِمةِ لَهُمْ، وَحَاضِرتِهمُ الكُبرَى.

وبَلَغَ حُمقُهمْ إِلَى أعلَى دَرَجَةٍ عندَمَا طَلبُوا مِنْ شُعَيبٍ أَنْ يأتِيَهُمْ بعقَابِ اللهِ الَّذى كَثيرًا مَا حَذَّرهُمْ منْهُ. واختَارُوا هُمْ نوعَ العقَابِ، فقَالُوا: يَا شُعَيْبُ، إِنْ كُنتَ صَادقًا فِى دَعوَاكَ الَّتِى تَدَّعيهَا فادعُ اللهَ إلهَكَ، أَنْ يُسقِطَ علينَا كِسَفًا، أى قِطعًا مِنَ السَّماءِ.

وبدَلاً مِنْ أَنْ يتوبُوا إِلَى اللهِ، ويَطلبُوا الهُدَى إِلَى الحقِّ، طَلبُوا أَنْ يُرسِلَ اللهُ عَليهِمْ جزْءًا مِنَ السَّماءِ، فَماذَا سَيكونُ هَذَا الجُزءُ؟

إِنَّهُ بِلاَ شَكٍّ، جُزءٌ مِنْ نارِ جَهَنَّمَ الَّتِى يعذِّبُ اللهُ بِهَا الكَافِرينَ.

وَقَدْ كَانَ لَهمْ مَا طَلَبُوا.

جَاءَ عذَابُ اللهِ الشَّديدُ لأِصْحَابِ الأَيكَةِ، وَهوَ عَذابٌ لَم يُصِبْ أىَّ أُمةٍ مِنْ قَبلُ.

فَلقدْ سَلطَ اللهُ عَليهمُ الشَّمسَ الحارَّةَ المحرقَةَ سبعَةَ أَيَّامٍ مُتواصلَةً، والحرَارةُ الشَّديدةُ تنصَبُّ عَلَى بيُوتهِمْ وَعلَى أجْسامِهِمْ حَتَّى احْمَرَّتْ جُلودُهُمْ، ونضَجتْ وصارَتْ كاللَّحمِ المشوِىِّ، وَأصبَحتِ المِيَاهُ تَغلى فِى آبارهِمْ وأوَانيهِمْ، فَصارُوا يَشربُونَ الماءَ المغْلىَّ فِى الحرَارةِ المرتَفعَةِ، فتَقطَّعتْ أمعَاؤهُمْ، وتسَلَّختْ جُلودُهمْ مِن وَهجِ الشَّمسِ، بَلْ تسَاقطتْ أوراقُ الأَشجارِ، فَلم يَجِدُوا مصدرًا لِلظِّلِّ يَحتَمُونَ بهِ.

كُلُّ هَذَا ولَمْ يبْلُغِ العَذابُ غَايتَهُ، لأَنَّهمْ طَلبُوا جُزءًا مِنَ السَّماءِ ينزِلُ عَليهِمْ.

وبعْدَ الأَيامِ السَّبعة الشَّديدَة الحَرارة، شَاهَدُوا سحَابةً كَبيرةً تَجولُ فِى السَّماء مِنْ فوْقهِمْ، فَفرحُوا بهَا وقَالُوا: حَمدًا لَك يَا آلهتَنَا، فَهذِه السَّحَابةُ ستُنزِلُ المطَرَ وتَصُبُّ المَاءَ، فَيتحسَّنُ الجوُّ، ويذهَبُ العذابُ.

وَخيَّبَ اللهُ آمَالَهمْ، وَأكذَبَ ظُنُونَهمْ، وعكَسَ أَفراحَهُمْ إِلَى أحزَانٍ، فَقدْ جَاءت السَّحابةُ، وَاقتربَتْ منهُمْ شيئًا فشيئًا حَتَّى غَطَّتْ جُزءًا كبيرًا مِنَ الأَيكة المحْترقَة بنَار الشَّمسِ، فَأسرَعَ الكثيرُ منْهم يقفُون تَحتهَا، ليسْتظلوُّا بهَا، وهبَّتْ نَسمَةُ هَواء بَاردةٌ، فَدعَوْا زملاءَهُمْ من بقيَّة أَصحَاب الأَيكَة وعَبيدهمْ ومَنْ يلوذُ بِهمْ إِلَى الحضُورِ سَريعًا لينعَمُوا بهَذه الرَّحمة الَّتى تَخيَّلُوهَا.

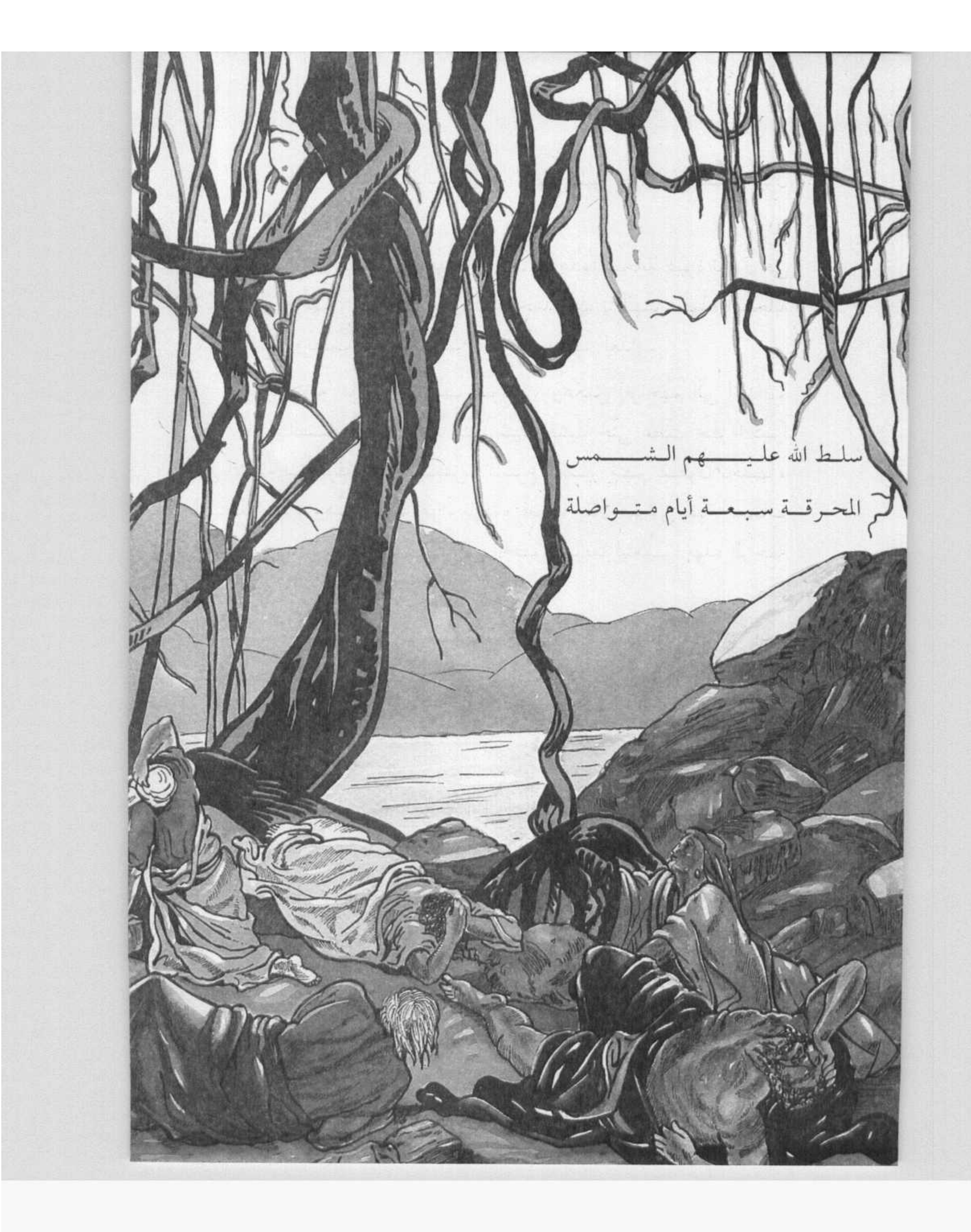
وَأسرَعَ الجميعُ إِلَى ظِلِّ السَّحابة حَتَّى اكتمَلَ عدَدُهُمْ، ولَمْ يبقَ أَحَدٌ مِنَ الكُفَّارِ خَارجَ حيزِ السَّحابة، فَبدأَتْ تُرسِلُ عَليهِم هَواءً بارِدًا.

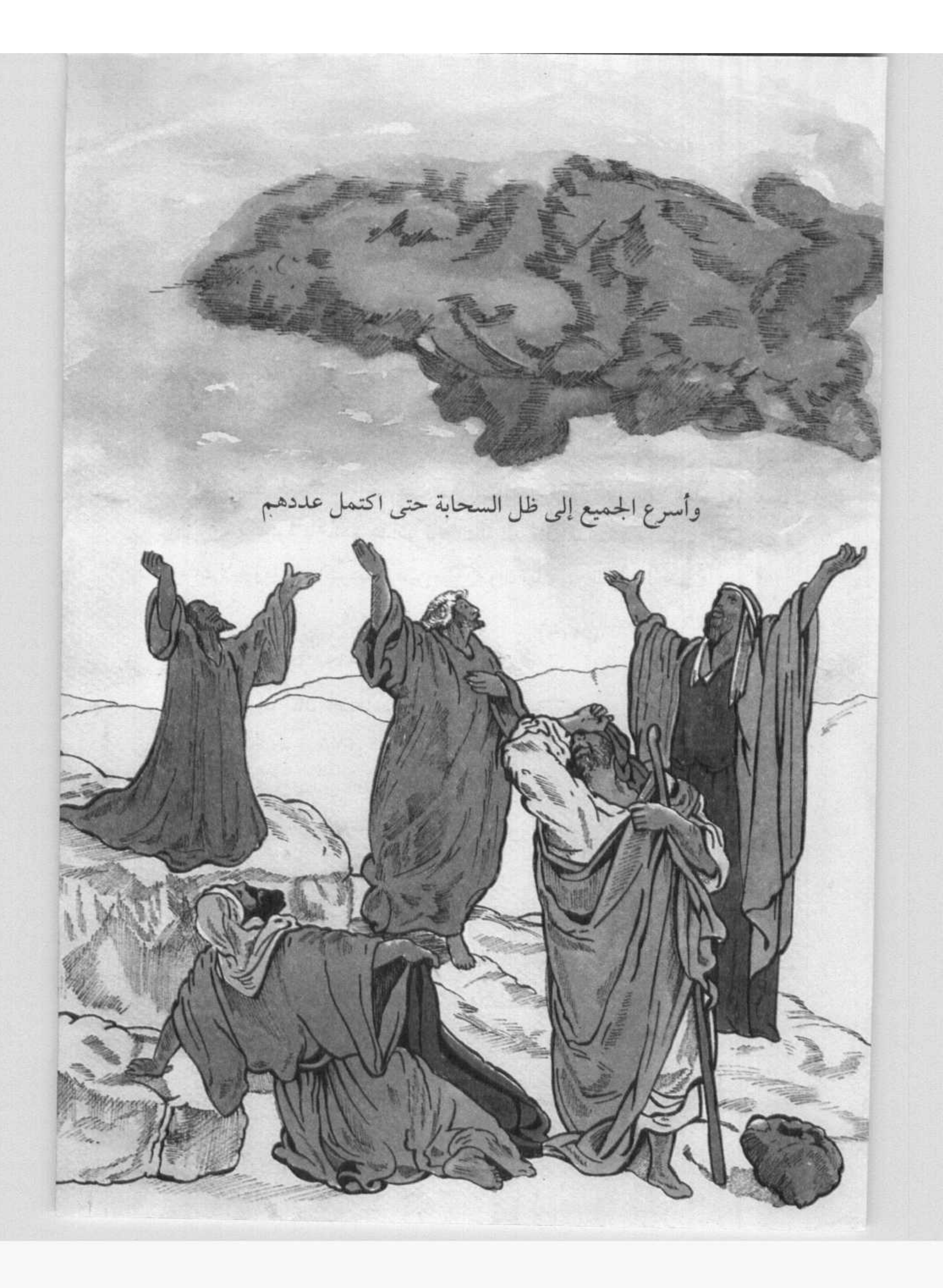
وَفجأةً، وفِى بِضْعِ ثَوانٍ تَحولَ الهَواءُ البَارِدُ إِلَى هَواءٍ سَاخنٍ كَأنَّما يَنصَبُّ عَليهِمْ مِنَ الجحِيمِ.

وَقبلَ أَنْ تُصيبَهُمُ الدَّهشةُ أَمطرَتِ السَّحابَةُ عَليهِمْ مَطرًا شَديدًا، وَلَكنَّه مَطر مِنْ نوْعٍ خاصٍّ، اختصَّ اللهُ بِهِ القَومَ الكَافرِينَ.

لَقدْ أمطرَتْ قطعًا مِنَ السَّماءِ، هِىَ قِطَعٌ مِنَ جَهنَّمَ، أَرسْلَتْ عليْهِم نَارًا شَديدَةً، فاحْترقُوا جَميعًا.

لَقدْ طَلبُوا ذَلكَ هُمْ بأَلسَنتِهِمْ، وانتَقَمَ اللهُ مِنهُمْ أَشدَّ انْتِقامٍ بما كَانُوا يكْذبُونَ.


سلط الله عليهم الشمس
المحرقة سبعة أيام متواصلة


وأسرع الجميع إلى ظل السحابة حتى اكتمل عددهم

وفى قصة أصحاب الأيكة يحكى لنا القرآن الكريم قول الله تعالى:

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴿١٧٦﴾ إذ قال لهم شعيب ألا تتقون ﴿١٧٧﴾ إني لكم رسول أمين ﴿١٧٨﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿١٧٩﴾ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴿١٨٠﴾ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴿١٨١﴾ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴿١٨٢﴾ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿١٨٣﴾ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ﴿١٨٤﴾ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴿١٨٥﴾ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴿١٨٦﴾ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴿١٨٧﴾ قال ربي أعلم بما تعملون ﴿١٨٨﴾ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴿١٨٩﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٩٠﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾

[الشعراء: ١٧٦ - ١٩١]

وقال الحق جل شأنه:

﴿وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ﴿٧٨﴾ فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩].

وهكذا صدق الله عز وجل حين وجهنا فى كتابه العزيز إلى وجوب عدم تطفيف الكيل والميزان، وعدم الغش التجارى فى كل صوره وألوانه، فقال تعالى:

﴿ويل للمطففين ﴿١﴾ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴿٢﴾ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿٣﴾ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴿٤﴾ ليوم عظيم ﴿٥﴾ يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ [المطففين: ١ - ٦].

وتعلمنا هذه القصة أن الميزان حق الله تعالى وهو رمز للعدالة والأمانة، فإذا وزن الإنسان شيئا يجب عليه أن يوفيه حقه، فالميزان كما قلنا رمز العدالة والأمانة، يشير إلى ذلك قول الله تعالى:

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

لَقَدْ كَانَ عَذَابُ الله شَدِيدًا، عَلَى أَهْلِ مَدينَ، وكَانَ أَشَدَّ عَلَى أَصحَابِ الأَيكة، لأنهُمْ لَم يَعتبِروا بعذَابِ أَهلِ مدينَ، وَوَاصَلُوا غَيَّهُمْ وشُرورَهُمْ، وبَخسَهُمُ المكيَالَ والميزَانَ، وهمُ الذينَ طَلَبُوا ذَلكَ العَذَابَ بأنفُسِهِمْ، فَأُجِيبُوا إِلَى مَا طَلَبُوا، ومَا اللهُ بِظلاَّمٍ لِلعبيدِ.

إنَّ لله حَقًّا معْلومًا، وللبائعِ والمشْترى كذلكَ حَقٌّ معْلومٌ، ولذلكَ يجبُ أَنْ يأخذَ كُلُّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ، بِلاَ زيادَةٍ ولاَ نُقصَانَ فِى كُلِّ وقْتٍ وَفِى أىِّ مكَانٍ.

حَتَّى فِى المعَاملاَتِ والسُّلوكيَّاتِ الَّتِى لاَ يكونُ فِيهَا مكَيالٌ ولاَ ميزَانٌ يَجبُ أَن نَبتَغِىَ وَجهَ الله، فَاستذكَارُ الدُّروسِ مثَلاً هُو حَقُّ العِلْمِ الذى يَجبُ أَن نُحَصِّلَهُ بصِدْقٍ، ولاَ نهمِلَ فيه أَو نغشَّ فِى الامتِحَانات، لأَنَّ ميزَانَ الحيَاة الاجتمَاعيةِ لاَ يعتدِلُ بِالغشِّ والانحرَافِ، فَالغشُّ يَرفَعُ الوضيعَ، ويضَعُ مِنْ قَدْرِ الرَّفيعِ، وَهذَا لاَ شَكَّ تَطفِيفٌ فِى السُّلوكِ والمعامَلةِ.

فَليكُنْ دأبنَا هُوَ الصِّدقُ والأَمانَةُ، والبعْدُ عَنْ كُلِّ ما يُؤدِّى بِنَا إِلَى غَضبِ الله وسَخَطِه وانْتقَامِه.

ولتكُنْ قِصَّةُ شُعيبٍ مَعَ أَهلَ مدْينَ وأَصحَابِ الأَيكَةِ، مثلاً نَضعُهُ أمامَ أَعْيننا دائمًا، فنتخذَ منْها العبْرَةَ والموعظَةَ؛ لنعيشَ فِى ظِلاَلٍ مِنَ العَدْلِ الَّذِى يُحقِّقُ لَنَا الأَمنَ والسَّعادَةَ والنَّجاحَ.

